

من بيروت إلى الخرطوم... يتغير العالم العربي إلى حد لا نستطيع التعرف عليه



الثلاثاء 3 ديسمبر 2024 03:00 م

"يزداد العالم العربي انقسامًا بين أولئك الذين يخسرون كل شيء، وأولئك الذين يملكون كل شيء"، هكذا تقول الكاتبة السودانية في صحيفة الجارديان نسرين مالك.

وفي مستهل تحليلها الذي نشرته الجارديان قالت نسرين: "على مدى الأشهر القليلة الماضية، كانت هناك طقوس جديدة قاتمة كلما التقيت بأشخاص من بعض الدول العربية إنها نوع من التعاطف المتبادل والاطمئنان كيف حالك؟ أين عائلتك؟ أتمنى أن تكون بأمان، وآمل أن يكونوا بأمان أتمنى أن تكون بخير نحن معك."

هناك راحة في ذلك، ورحر أيضًا راحة لأن الكلمات جادة، والتضامن ذو معنى لا يمكن تجاهله محرج لأن حجم ما يتحملة الكثيرون أكبر من أن يتم تلخيصه في تلك الكلمات كل شيء يبدو ملطخًا بذب الناجي، ولكن أيضًا بقليل من العزم على معرفة أن الكوارث التي تمزق دولنا قد أغلقت المسافات بيننا.

في قلب كل هذا توجد فلسطين - صدمة مفتوحة تطارد التفاعلات لقد ساد الصمت، حيث كان الغضب والصدمة من قبل أضف إلى هذا لبنان قبل وقف إطلاق النار، أخبرني صديقة لبنانية أنه من الغريب أن تشعر بأنك قد لا تجد بلدًا للعودة إليه قريبًا قالت صديقة أخرى، عندما سألتها عن الوضع بالنسبة لعائلتها في بيروت، "يا للهول". لقد مضينا قدمًا.

وفي الوقت نفسه، دخلت السودان عام ونصف العام في حرب وحشية محيرة حتى في الضفة الغربية المحتلة، سألني كل فلسطيني تقريبًا التقيت به عن السودان، وقد شحذت تجربتهم الخاصة إحساسهم بالحرب هناك قال لي أحد الرجال: "إنه لأمر مخزٍ للغاية، وغير ضروري على الإطلاق إن قادتنا هم الذين يريدون القتال دائمًا، وليس الشعب".

أيضا كان الأمر، يبدو الأمر وكأنه حرب واحدة، وأسبابها معقدة، لكن عواقبها على أولئك الذين يختبرونها بسيطة نحن جميعًا في ورطة مألوفة.

إذا ابتعدنا أكثر، فإن المشهد في جميع أنحاء العالم العربي يبدو قاتمًا تاريخيًا النيران الكبيرة والصغيرة تحترق في كل مكان الواقع العديد من البلدان - ليبيا والعراق واليمن وسوريا - إما منقسمة بسبب صراعات متقطعة منخفضة الدرجة (سوريا تتصاعد مرة أخرى)، أو تكافح من أجل التغلب على الأزمات الإنسانية.

حصيلة السنوات القليلة الماضية مذهلة ليس فقط من حيث الموت، بل والنزوح أيضًا فقد تكررت مشاهد مئات الآلاف من اللبنانيين الفارين من القتال على مدى الأشهر السابقة في مختلف أنحاء المنطقة والواقع أن الإرث الذي خلفته هذه الأحداث هو ملحمة مؤلمة من التنقل والانقسام وإعادة التوطين غير المستقرة ويعيش كل سوداني أعرفه تقريبًا، داخل السودان وخارجه، مع أفراد آخرين من الأسرة في ظروف مؤقتة، ويعيشون في حقيبة سفر، في انتظار المرة التالية التي يتعين عليهم فيها الانتقال مرة أخرى وهم المحظوظون، الذين نجوا من التطهير العرقي والمجاعة في أجزاء أخرى من البلاد.

وهناك حصيلة أخرى أقل إلحاحًا، أقل إلحاحًا عندما نتحدث عن الحياة والموت، تلوح في الخلفية المدن التاريخية الكبرى تتعرض للتدمير، كما أن عملية محو الحضارة جارية فقد تعرضت جميع المواقع المدرجة على قائمة اليونسكو للتراث العالمي في سوريا للضرر أو التدمير كما دمر الجيش الإسرائيلي المسجد العمري الكبير في غزة، والذي يعود تاريخه إلى القرن الخامس، والذي وصف بأنه "قلب غزة التاريخي". كما تم تصنيف مدينة صنعاء القديمة في اليمن، والتي يسكنها السكان منذ أكثر من 2500 عام، على أنها "في خطر" منذ عام 2015. وفي هذا العام، تعرضت عشرات الآلاف من القطع الأثرية في السودان، بعضها يعود إلى العصر الفرعوني، للنهب إن المدن يمكن إعادة بنائها، ولكن التراث لا يمكن تعويضه.

حتى الدول المستقرة مثل مصر لم تنج من هذا التخريب الثقافي حيث يتم هدم المواقع التراثية لإفساح المجال للتنمية الحضرية من قبل حكومة تسارع إلى إعادة بناء مصر بما يتوافق مع ثقافتها الأحادية للحكم العسكري وفي هذا استعارة تنطبق على جميع أنحاء المنطقة من أجل ترسيخ السلطة، تسعد المؤسسة السياسية بتخريب الهوية.

حتى في ذهني، أستطيع أن أشعر بأن الخطوط الثقافية تتلاشى مع اختفاء العمارة المادية ومع هذا، يتم محو العديد من الأشياء الأخرى - الشعور بالتجذر، والاستمرارية، والمستقبل أنظر إلى أطفالنا وأشعر بالرعب من إدراك أن تضاريس السودان، والعالم العربي كما اختبرته من خلال الأدب والفن والسفر، هي شيء لن يعرفوه أبدًا بالنسبة لهم، يتم قطع الروابط التي تربطهم بالديهم، كما ربطوني بالدي.

وأضافت نسرين: "مع تحول مركز القوة السياسية والاقتصادية في المنطقة إلى دول الخليج الغنية بالنفط، والتي أصبحت تعبيرات مركزة عن الاستهلاك المفرط والحدائق، أستطيع أن أسمع نفسي أقول أيضًا: "لم يكن الأمر دائمًا على هذا النحو". لم يكن الأمر دائمًا عروض الأزياء، مثل العرض الذي أقامه المصمم اللبناني إيلي صعب في الرياض الشهر الماضي، والذي هيمن على وسائل التواصل الاجتماعي مع مقاطع فيديو لجنيفر لوبيز وسيلين ديون وهما تغنيان أغانيهما الناجحة أمام مؤثرين محليين وعالميين أو الأحداث الرياضية المليئة بالطاقة وحفلات الإبهار، بينما تتكشف حفلات العنف في أماكن أخرى."

أنا أكثر تسامحًا الآن مع هؤلاء الكبار، وأريد أيضًا أن أقول لهم: لم تكن تعرف مدى جودة ما لديك! أستطيع أن أرى الآن أن ما اعتقدته على أنه فشلهم كان شيئًا أكبر بكثير، وأكثر ارتباطًا بالتحالفات العالمية والتحالفات المحلية التي منعت ظهور الانتفاضة الشعبية، أو سحقها عندما انتفضت! لقد كانت كل الاحتجاجات تدور ضد الوكلاء.

وختمت: "عرضت علي صديقة عراقية مؤخرًا بعض العزاء بشأن السودان! لقد بدأت بغداد تشعر بأنها طبيعية، كما أخبرتني، لأول مرة منذ عشرين عامًا! كانت الأمور بعيدة كل البعد عن المثالية، ولكن كان هناك احتمال أن تتاح الفرصة بعد بضعة عقود لبداية جديدة! وربما يكون أفضل ما يمكن أن تأمله هو بداية جديدة، وليس إعادة تأهيل الماضي! وفي غضون ذلك، كل ما يمكن قوله للأصدقاء والغرباء، الذين أصبحوا الآن مواطنين، هو أتمنى أن تكونوا بأمان! أتمنى أن تكونوا بخير! نحن معكم."

<https://www.theguardian.com/commentisfree/2024/dec/02/arab-world-death-destruction-beirut-khartoum>